الاتجاهات الحديثة

في الفنون والآداب المعاصرة

من اغرب ظواهر عصرنا الحالي ان تيارات التفكير فيه متناقضة متباينة . وان الباحث الناقد لايسعهُ الا ان يلاحظ ان الآداب والفنون الحديثة في جملتها تحاول التنصل من القيم الروحية والنغم الانساني العاطفي ، الذي كان يشير في الماضي الى اميز خواصها ، واخص ميزاتها ، وان يلاحظ في هذا الوقت الذي يهيمن فيه التفكير الحسابي على منتجات الفنون والآداب — ان هنالك موجة قوية في سير العلوم الطبيعية الحديثة ، وفي الفلسفات المعاصرة نحو عالم الروح ، ونحو نوع من القيم الانسانية التي لا ترجع الى عمليات المنطق ومكتشفات الذهن الرياضي . هنا يقف الانسان ليرى تفسير كل ذلك وتعليله ان كان لذلك التفسير والتعليل من سبيل !

فالفلسفة بعد أن أصبحت في اخريات القرن التاسع عشر ترتكز اشد ما ترتكز على الحقائق المطلقة والمبادئ الذهنية المنطقية عادت في هذا القرن العشرين تتلمس وجوهاً وقيماً غير الوجود والقيم الاولى ، وكان من نتائج ذلك التلمس أن جاء وليم جيمز ومن تبعهُ من فلاسفة الامريكان بالفلسفة العملية (براجمازم) . وجاء برجسون بفلسفة البصيرة وقوله ان الذهن البشري وحده لا يستطيع فهم حقائق الحياة . كما ان وجهة النظر الميكانيكية المادية في العلم لم تعد تقوى على الوقوف امام ابحاث اينشتين وادنجتون وجينز ولودج وانداده من اقطاب العلم الحديث

في هذا الوقت نجد اتجاهات فكرية محضة ، وعناية بالقالب والشكل على حساب الموضوع والعاطفة في منتجات الآداب والفنون الحديثة تكاد تعم معظم ما يخرجه « الجيل الجديد » في النحت والتصوير والموسيقى والقصة

في الفنون الشكلية عناية بالقالب بلغت حد التطرف والهوس وجارت على مكان الشعور والتخيل الصادق المألوف في منتجاتهم . ونشأت على اثر ذلك المدرسة التكعيبية ومدرسة « العروض » وخلافهما من المدارس الفنية . ثم جاء « ابشتين » في النحت بقوالب وايماءات ينكرها الانسان ولا يعرف اين يستقر الجمال فيها ولا الشبه الذي يود ابرازه . فقد أصبحن هؤلاء الفنانين فناً فكرياً رياضياً خالصاً لا يهتم بالقيم الادبية وتمثيل المشاعر ، وحكاية الاصل حكاية واقعية ، وانما جل همهم محصور في الاغراب الفني والابداع في القالب ، حتى أن الانسان ليصعب عليه في كثير من الاحيان تمييز الموضوع المرسوم ، اهو انسان ام شجرة ام آلة من الآلات ؟ !

« وجكوب ابشتين » هذا لا يرضخ في عالم النحت لفكرة الجمال « الرومانطيقية » المألوفة

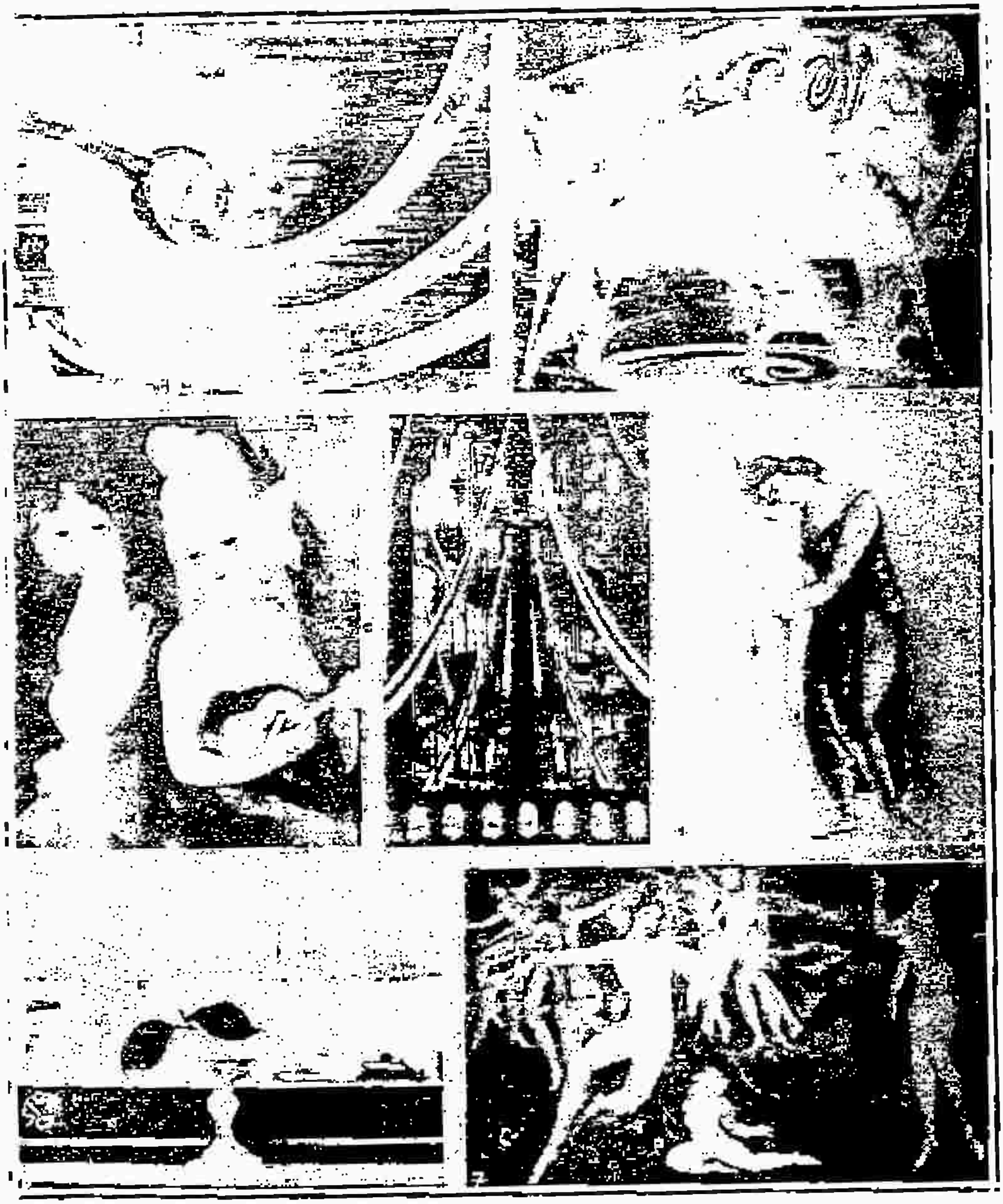

ناحية من طرائق التصوير الحديث تمثل الغرابة واللاتساق والانسجام في الحركة والشكل

عن دائرة المعارف البريطانية

ولكنهُ يعتقد ان العمل الفني يجب ان يفاجيء مشاهده مفاجأة، وان ينقله من عالم العادة التي ألفهُ والذي تتشابه فيه القيم والتجاريب ، الى عالم فن جديد يوحي به الفنان ويذهب به خيال المشاهد ، ويقلق راحته ، ويجعله يفكر كثيراً ويرتاب اكثر فيما قبله من قواعد الجمال واصول الفن وقيم الحياة . وهو اكثر ما يعمد الى الموضوعات المجازية ليدل بذلك على فكرة فلسفية او رأي جديد ، ويختار لذلك الغرض عنصر « عدم الاتساق » في الشكل فيبرزه ، ذلك لانهُ يفرض ان كل شيء جميل فيه عنصر غير متسق هو احرى بأن يدل على ذلك الشكل دلالة قاطعة فيترك تماثيله المصنوعة من البرنز من غير صقل لأنهُ يعتقد ان الصقل يستغرق عناية المشاهد بلين الملمس ، وحكاية الاصل ، وليس ذلك غرضه ولا مرماه . وانما كل وكده ابراز حلم جديد وفكرة لامعة ، وتدوين الشبه الدقيق ، والجمال المستور في تماثيل لاشبه فيها ولا جمال واضح بيّن !

ونجد في الموسيقى المعاصرة « استرافنسكي » ، اقليدس الموسيقى كما يسميه بعض النقدة لقرب موسيقاه من التخطيط الهندسي الدقيق ، والدلالة الفكرية الصارمة ، يأتي بتراكيب وأشكال لا يميزها السامع ولا يرى موضع الجمال فيها ولا العاطفة ، ولا يلمح في كل ذلك وضوحاً ولا تعبيراً . واسترافنسكي مفكر رياضي اتخذ الموسيقى اسلوباً لتفكيره الجاف ، وابتكر لذلك انماطاً من «الهارموني» لا يميزها الا القليل من رجال الموسيقى . فالسامع لا يجد اي عنصر انساني في تلك الموسيقى عت الى شعوره بسبب . وانما هي موسيقى مطلقة تعبر عن النشاط الجسمي والسرعة الآلية وتخاطب الذهن الرياضي . ويظهر ان الابتكار في القالب قد انتزع كل انتباه هذا الموسيقي النابه وحرم فنه من الشعور او القصد الانساني الذي لا يمكننا ان نستمتع الفنون بغيره

وكذلك الامر في الآداب ، وخاصة في القصة فقد طغى القالب والفكر على جلال الموضوع وسعة العاطفة . وأصبحنا نقرأ — في الفترة التي تلت الحرب — أدباً فكرياً قد انتزعت منهُ معظم الخصائص والشيات التي تقرنها عادة بالآداب . واصبحت القصة لا تعنى بالعواطف الانسانية الاصيلة ، ومسائل الحياة الرئيسية قدر عنايتها باجادة القالب الفني ، والتفكير المنطقي البارد ، وتحليل النوازع الانسانية وردها الى اصول اولية لا تشرف الانسان ، بل تشككه في القيم الروحية أو بالاحرى تجعله يتساءل اذا كان له روح حق ! ؟

غير ان كل هذه الثورة الادبية في الفن الكتابي لها ما يبررها ويجعلك اشد عطفاً عليها لأنها ممزوجة بروح الاصلاح وتلمس قيم جديدة ، وحقائق كبرى . « فالدُس هكسلي » على زعم انهُ يمثل عنصر التفكير الغالب في الادب الانجليزي الحديث — كما يرى الاستاذ هارولد نيكلسون — قد قرأنا له مقالات عدة ينقد فيها هذه النزعة الحديثة في الفنون عامة وفي فرنسا على وجه الخصوص ويقول ان هذا هو الخوف بعينه من مجابهة الحقائق الكبرى التي تكوّن معظم تجاريب الحياة . والاقتصار على ١٠ ٪ من حقائق الحياة غير الواضحة

حين وصف . وهو يحمل حملة شديدة على ارباب الفنون الشكلية من الجيل الجديد ويقول عنهم انهم قد اوجدوا « رومانطيقية » جديدة تعبد الآلة وتنكر الروح والحرية الفردية على نقيض الحركة الرومانطيقية في اوائل القرن التاسع عشر . وليست هذه الرومانطيقية باحسن من تلك : ويعلل هكسلي هذه الظاهرة الجديدة بان رجال الفنون الحديثة قد اعتراهم الخوف من مجابهة الحقائق الانسانية الكبرى لانهم رأوا تلك الحقائق في معرض لا يسر ولا يغري بالاعجاب بعد ان شوهتها أيدي رجال الفنون الشعبية ، واظهرت تلك العواطف والمشاعر في معرض مبتذل سخيف . فلجأ الجيل الجديد الى انكارها والقول بانها غير موجودة، وارتاحوا الى التفنن في القوالب الفنية مع ان الشجاعة الفنية تحتم عليهم ان كانوا صادقين مواجهة تلك الحقائق الواضحة وعرضها في نور جديد وان يستطيعوا رياضة ذلك الوحش « المبتذل » الى منهج الفن الصادق ، ودقة القالب الرفيع . ذلك ما يقوله هكسلي ويحاول انتاجه ولكنهُ لم يستطع الى الآن !

فالتيارات التي تعمل في ادب الجيل الجديد في اوربا كثيرة ومتعددة ، وفي بعض الاحيان متناقضة غير ان هنالك روحاً واحداً — لا يخطئهُ القارئ — يصدر عنهُ كل ادباء الجيل الجديد ، وسمات خاصة تميز فنهم عن فن ما قبل الحرب وتشير الى اهم خصائصه واتجاهاته

ذلك الروح هو روح النفي والشك في معظم الحقائق السابقة والقيم الماضية !

فهذا الشاب — الدس هكسلي — يمثل « النفي » والتمرد على الماضي اتم تمثيل وهو يتناول المسائل المقررة والقضايا المقبولة وينقدها على ضوء السيكولوجية الحديثة . وهو لا يفتأ منقباً عن اجرام الماضي وغلطاته وسخافاته ونفاقه واكاذيبه ثم يعرضها بما تستحقهُ من النقد والسخرية الضاحكة ، ولا يعتمد في كل قصصه وكتاباته على غير التجربة والملاحظة ، ولا ينظر الى الانسان الا كما ينظر الى بقية المخلوقات ، نظرة فيها من الارتياب والشك والتمحص — ما يغضب بعض القراء ويثير اشمئزازهم — وعلى نقيض هكسلي في هذه الصفة « د . ه . لورنس » الكاتب الانجليزي المعروف . فهو قد اقتنع بسخافة الماضي وأكاذيبه وبطلان قيمه ، وهو يحاول بناء فلسفة جديدة ترجع الى غريزة الجنس او « قوة الحياة » كما يسميها . فهو مبشر يدعو الى الحياة الطبيعية وتلبية نداء الجنس الطبيعي . ويعتقد ان الكمال الانساني انما يجيء اذا رجعنا الى غريزة الحياة التي لا تعرف الكذب والنفاق . وهكسلي انما يؤمن بالذهن البشري ولا ينكر الغريزة . بل يرى ان الاثنين لا بد منهما لحياة المليئة وعصور الخلق الزاهية

بعد هذا العرض المقتضب لاتجاهات الفنون والآداب في أهم خصائصها وميزاتها نرى لزاماً علينا ان نعرض للاسباب التي تعمل وراء تلك الاتجاهات والنزعات فنقول :

انهُ لمن الصعب جداً أن نرجع باتجاهات تكاد تكيف عصراً بأكمله الى سبب واحد . كما أشار هكسلي مثلاً الى الخوف من الحقائق الواضحة بعد ان عرضها رجال الفنون الشعبية بتلك

امثلة من التصوير الحديث

الصورة المبتذلة الكاذبة المتزيدة في العاطفة والشعور حتى وصل الامر بالجيل الجديد الى نكران وجودها مطلقاً ، والايمان بالفكر والقالب فقط . كما ان الرجوع بكل هذه الاتجاهات الى أثر الحرب الكبرى — جملة وتفصيلا — لامر سهل رخيص يريحنا من التفكير والتفصيل ولكنهُ لا يقنعنا بشموله وعمقه . وليس من شك ان السبب الذي اتى به الآمر حكمي صحيح صائب. ولكنهُ ليس كل الصحة والصواب وليس شك ان أثر الحرب العظمى في هذه الاتجاهات الفنية أثر واسع عظيم . فهذا الجيل الذي يحترف الفن او يكتب القصة قد اكتوى بنار الحرب الكبرى وشهد افظع مجزرة بشرية يبيؤها « السامية » باسم الشجاعة والنجدة والوطنية والامانة وما ماثلها من الالفاظ الرنانة ، حيث كان الدافع الصحيح بعيداً عن هذه الاشياء بل هو اقرب الى الاغراض الوضيعة وللمشاكسات الصغيرة والاكاذيب الضخمة التي كان يذيعها المتحاربون بعضهم عن البعض ويدفعون باولئك الشبان الابرياء الى اشنع صور الوحشية وتحجر الشعور والعاطفة . فلما وضعت الحرب اوزارها وحان الوقت للتفكير المنطقي الهادئ وعلم الشبان بحقيقة تلك الحرب الكبرى تشككوا في كل القيم والمبادئ التي تلقوها في المدارس من آبائهم واجدادهم ورجعوا يفحصون الماضي بكل دقة وارتياب ، وتبدلت نظرتهم للحياة وللطبيعة البشرية ، وابتدأوا يدرسون من جديد !

واذا كانت الامور على هذا النهج من الكذب والنفاق فن اين لهم ان يطمئنوا الى اي حقيقة في أدب أو فن ؟ ! . وظهر هذا الشك وذلك النفي وعدم الايمان في منتجاتهم الفنية ولجأوا الى اللعب « بالقالب » اذ أنهم لا يعرفون الحقيقة واللباب ولا يمكنهم ان يطمئنوا الى حق قديم اذا لم يلاحظوه ويجربوه مراراً على النسق العلمي !

واذا اضاف الانسان الاكتشافات التي تلت الحرب الكبرى وانتشرت في كتب « السيكولوجية » الحديثة مثل « التحليل النفساني » و « السلوكية » وخلافهما ، والتي اظهرت حقائق جديدة عن النفس البشرية — مرة في بعض الاحيان — لا تمت الى ذلك النبل والصدق المزعومين ، سهل عليه تعليل هذا التشاؤم وذلك الشك وتحليل كل عمل الى بواعثه الاصلية ، والالحاح في ذلك التحليل والتعليل !

ونرى أيضاً ان هذا الدور في تطور الآداب والفنون — الى جانب كل هذه الحقائق — قد استلزمتهُ مقتضيات التطور في تاريخ الفنون . فالمصور او الفنان في هذه الايام يرى ان من سبقوه من الفنانين قد حكوا الاصل حكاية تامة ليس من زيادة بعدها لمستزيد . وان هذه الدائرة من الواقعية الفنية قد بلغت دور كمالها وشيخوختها . واذاً فلابد للفنان الحديث ان يكتشف ناحية لم يُعِرها القدماء عنايتهم ، فيبرزها ، فوقع اختياره «على القالب» والابداع في اغاظه والقول بأنهُ هو « المسألة » كلها في الفن واتخذ «الفكر» واسطة لذلك الفن

كما انه يغلب في ظننا ان لانتشار الفنون الرخيصة مثل التصوير الشمسي والسينما دخلاً كبيراً في هذه الاتجاهات نحو القالب الفني والاغراب فيه . فآلة التصوير الشمسي — بعد الاصلاحات الحديثة — تحكي الاصل تماماً وتعطي كل الالوان والظلال المختلفة. واذاً فالتصوير الفني لا يمكن ان يجاريها في هذا المضمار. والقصة يمكن سردها باسلوب شائق جذاب على لوحة السينما بنجاح اكبر من سردها في غضون كتاب . واذاً فلابدّ من الاتجاه الجديد في الفن القصصي وبقية الفنون التي زاحمتها الفنون الرخيصة !! . ذلك امر طبيعي وهو الدفاع عن الكيان الذاتي وتوكيد النوع

ونعتقد ان هذا الدور في تطور الآداب والفنون سوف يعقبه دور آخر يجمع بين جلال الموضوع الانساني وبين الابتكار في القالب والابداع فيه . ولن يكون ذلك الطور الا بعد انجلاء هذه الشكوك وانتهاء عصر «النقد» والنقد . ذلك لان الفن يتأخر في تطوره وكأنه لانه ارفع درجات الوعي البشري . وهو يمر الآن بهذا الطور الذي مرت به الفلسفة ومرت به العلوم

ونرى بوادر هذا الطور عند الكاتبة الانجليزية النابهة «فرجينا ولف» — اعظم فنانة تكتب في الوقت الحاضر — فهذه المرأة مفكرة عميقة التفكير ، وقالبها الادبي يصعب تتبعه للقارىء الحدث وهي لا تخاطب مشاعرنا المعروفة . ولكنها في واقع الامر تتناول اكبر مسائل الحياة الشعورية وتعرضها في اسلوب كله الدقة والشعر والتفنن . فهي تتناول مثل مشكلة عواطف الانسان وتغيّرها واستمرار الوقت وعدم تغيره ، وتؤلف من كل ذلك قوالب جديدة ، بارعة الرمز ، شديدة الايحاء . وهي لا تؤثر في قارئها — مع انها تستعمل الكلم — عن طريق المنطق والتفكير . ولا تحكي قصتها كما يحكيها القصاصون بالطريقة الزمنية المكانية. وانما قصصها تترك جواً خاصاً في وعي القارىء الدقيق الشعور ، يحمل اليه كل ماتريد التعبير عنه ، جواً هو مزيج من الاصوات والالوان والروائح والانوار المختلفة ، جواً يقرب في فعله وأثره من فعل الموسيقى وأثرها . فهذه المرأة هي اقدر النساء اللاتي كتبن في الادب على وجه الاطلاق وعمق احساسها بالحياة ليس له من قرار . وخيالها القوي النشيط لا يتتبعه الا من كان قوي الخيال نشيطه . وايحاؤها الفني يترك حلقات من الموج في وعي القارىء تنفذ رويداً رويداً الى مناطق من الروح غير مكتشفة ، غامضة مليئة بالحقائق المجهولة

نرى اذاً ان «فرجينا ولف» بادرة طيبة من بوادر الطور القادم الذي سوف يجمع الى صرامة التفكير ودقة القالب ، مشاعر الانسانية الكبرى وقيم الروح العليا في الفنون الادبية. بل نذهب الى ابعد من ذلك ، فنقول ، ان سيجيء اليوم الذي تزول فيه الفلسفة كما نعرفها الآن. وان الفن سوف يبتلع كل صنوف التفكير والشعور والدين والعلم الرياضي ليخرج بذلك «فناً» يحمل ميزة كل هؤلاء ولا يفقد طابعه الخالق وقالبه الدقيق . اذ ان الفن — كما بينا — هو اعلى دور في تطور « الوعي » البشري

معاوية نور